المزيج وسط الازمة الموضوعية والذاتية التي كان يعيشها المجتمع العربي في فلسطين ، وظل اسير القيادات الاقطاعية — الاكليركية لهذه الاسباب كلها مجتمعة. فامام العسف الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يلحق بالفقراء العرب في المدن والقرى لم يكن من الممكن للحركة الوطنية الا ان تأخذ أشكالا متقدمة من النضال والا ان ترفع شعارات وتتبع مسالك طبقية ، وامام الحلف المتين المعبر عن نفسه يوميا بين مجتمع الغزو الذي بناه الصهيونيون في فلسطين وبين الامبريالية البريطانية لم يكن من الممكن تغييب اولوية السمة القومية لذلك النضال، وامام الحمى الدينية المهولة التي ارتكز عليها الغزو الصهيوني لفلسطين والتي التصقت بكل مظاهره كان من المستحيل الا يتمترس الريف الفلسطيني المتخلف وراء التعصب الديني ، كمظهر من مظاهر معاداة الغزو الامبريالي والصهيوني(*).

ولقد تقدمت القيادات الاقطاعية — الاكليركية للتربع على رأس حركة الجماهير ، مستفيدة من ضمور البورجوازية العربية المدينية ، ومن الحد المعين من التناقض الذي كان يحتدم بينها وبين الامبريالية البريطانية التي كانت ترسي نفوذها عبر حلفها مع الحركة الصهيونية ، ومن صفاتها الدينية ، ومن صغر حجم البروليتاريا العربية وضمور حزبها الشيوعي الذي لم يكن فقط تحت هيمنة الزعامة اليهودية ولكن الذي تعرضت عناصره العربية الى بطش وارهاب القيادات الاقطاعية منذ اواخر العشرينات . امام هذه الخلفية المركبة ، التي تحتدم فيها تناقضات متداخلة شديدة التعقيد ، خطت ثورة ١٩٣٦ الى الصف الامامي في تاريخ فلسطين.

(*) تقول مجلة « متسبن » اليسارية العبرية في عددها رقم ٥٨ الصادر في نيسان ١٩٧١ ، تعليقا على ظهور حركة الفهود السود في اسرائيل : « تميل التناقضات الطبقية في اسرائيل ، في بعض الاحيان ، الى الظهور بمظهر تناقضات طائفية — ان المطالب الطبقية ، حتى وهي تترجم الى لغة طائفية ، تمس منذ لحظة البداية قلب الصهيونية في الصميم ». طبعا تنطبق صحة هذا القول بصورة مضاعفة على الدور الذي لعبه الدين ضد الغزو الصهيوني ، بصفته اضطهاد قومي وطبقي في آن واحد . وعلى سبيل المثال فقد « كان من ثمرات الغزو الصهيوني ... ان تحولت الموالد النبوية الى مهرجانات قومية بتدبير من مفتي حيفا والشاعر وديع البستاني ، وكان يحضر الحفلة جميع الرؤساء الروحيين واعيان النصارى ، ولم يكن يدعى اليهودي اليها قط ، وهكذا اصبحت الموالد، الاسلامية والمسيحية ، اعيادا شعبية تقام بمظهر قومي في مدن فلسطين » .

الثـــورة

يتسابق الكثير من المؤرخين في اعتبار حادث معين وقع في مكان معين هو السبب في انفجار ثورة ١٩٣٦ : يعتقد يهودا بوير ان الحادث الذي « يعتبر عموما بداية اضطرابات ١٩٣٦ » حدث في ١٩ نيسان ١٩٣٦ حين « هاجمت حشود من العرب في يافا المارين اليهود »(٥٩). ويعتبر عيسى السفري(٦٠) وصالح مسعود ابو يصير(٦١) وصبحي ياسين(٦٢) ان الشرارة الاولى انما كانت قيام عصابة عربية مجهولة (يقول صبحي ياسين انها كانت عصابة قسامية منها فرحان السعدي ومحمود ديراوي) بنصب كمين لسيارات كانت تعبر بين عنبتا وسجن نور شمس ، بلغ عددها ١٥ ، فسلبت الركاب اليهود والعرب على السواء اموالهم ، والقى احد الافراد الثلاثة من العصابة خطبة موجزة في الركاب العرب الذين كانوا اكثرية الركاب ، كما يقول السفري ، تضمنت القول بان الثورة قد بدأت و « اننا نأخذ اموالكم لكي نستطيع ان نحارب العدو وندافع عنكم »(٦٣). ويرى الدكتور عبد الوهاب الكيالي(٦٤) ان الشرارة الاولى انفجرت قبل ذلك ، اي في شباط ١٩٣٦ ، حين تألفت حامية من العمال العرب طوقت احدى المدارس التي كان مقاولون من اليهود يقومون ببنائها بواسطة ايد عاملة يهودية فقط في يافا . الا ان جميع المصادر تعتبر عن حق ان الانتفاضة القسامية التي فجرها الشيخ عز الدين القسام كانت هي البداية الحقيقية لثورة ١٩٣٦ . على ان تقرير اللجنة الملكية البريطانية (اللورد بيل)(٦٥) ، وهو التقرير الذي يعتبره يهودا بوير من انضج ما كتب عن المسالة الفلسطينية حتى الان ، يقفز فوق هذه التعابير المباشرة عن الانفجار ، ويرد الاسباب في انفجار الثورة الى سببين رئيسيين هما : رغبة العرب في نيل الاستقلال القومي ، وكرههم لانشاء الوطن القومي اليهودي وتخوفهم منه . وهذان السببان ،